

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣١ - سُورَةُ لُقْمَانَ

سميت به لاشتغالها على قصته التي تضمنت فضيلة الحكمة وسر معرفة الله تعالى وصفاته ،
وعدم الشرك والأمر بالأخلاق والأفعال الحميدة . والنهي عن الذميمة . وهي معظمت مقاصد
القرآن . قاله المهايى . وهى مكية . ويقال : إلاقوله تعالى ^(١) (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ
شَجَرَةٍ . . .) الآيتين . وآياتها أربع وثلاثون آية . وسيأتى الكلام على لقمان والخلاف فيه .

(١) [٣١ / لقمان / ٢٧ و ٢٨] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الْم)

[٢] (تِلْكَ آيَةُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ)

[٣] (هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ)

[٤] (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)

[٥] (أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

[٦] (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ

وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ)

« الْم * تِلْكَ آيَةُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ » أى ذى الحكمة الناطق بها « هُدًى وَرَحْمَةً

لِّلْمُحْسِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ » بيان

لإحسانهم ، يعنى ماعملوه من الحسنات . أو تخصيص لهذه الثلاثة من شعبه ، لإظهار فضلها وإناقها

على غيرها . والمراد بالزكاة ، على أنها مكية ، هى مطلق إخراج المال تقربا بالتصدق منه ، وترك

للفس بايتائه ، من وصمة البخل والشح الردى لها . لا أنصبأها المعروفة . فإنها إنما بينت بالمدينة

« أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ

الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ » تعريض بالمشركين . وأنهم يستبدلون بهذا الكتاب المفيد

الهدى والرحمة والحكمة ، ما يلهى من الحديث عن ذلك الكتاب العظيم . ليضلوا أتباعهم عن

الدين الحق . قال الزمخشري : و(اللهو) كل باطل ألهى عن الخير ، وعمما يعنى . وهو الحديث نحو

السمر بالأساطير ، والأحاديث التي لأصل لها ، والتحدث بالخرافات والمضاحيك وفضول الكلام . وما لا ينبغي ، مما كانوا يؤفكون به عن استماع حكم التنزيل وأحكامه . ويؤثرونه على حديث الحق . وقوله تعالى « بَغَيْرِ عِلْمٍ » أى بما هى الكلات ومنافعها ، والنقائص ومضارها « وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا » الضمير للسبيل ، وهو مما يذكر ويؤنث . « أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِ ءَايٰتُنَا وَلِيٰ مُسْتَكْبِرًا كَآنَ لَمْ يَسْمَعْهَا كَآنَ فِيْٓ اٰذْنِهٖ وَقْرًا ، فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ اَلِيْمٍ)

[٨] (اِنَّ الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا وَعَمِلُوا الصّٰلِحٰتِ لَهُمْ جَنَّتُ النّٰعِيْمِ)

[٩] (خٰلِدِيْنَ فِيْهَا ، وَعَدَ اللّٰهُ حَقًّا ، وَهُوَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ)

[١٠] (خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَّرَوْنَهَا ، وَآلَقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوْسًى أَنْ تُنمِدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيْمٍ)

« وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِ ءَايٰتُنَا وَلِيٰ » أى أعرض عنها « مُسْتَكْبِرًا كَآنَ لَمْ يَسْمَعْهَا كَآنَ فِيْٓ اٰذْنِهٖ وَقْرًا » أى ثقلًا مانعًا من السماع « فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ اَلِيْمٍ * اِنَّ الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا وَعَمِلُوا الصّٰلِحٰتِ لَهُمْ جَنَّتُ النّٰعِيْمِ * خٰلِدِيْنَ فِيْهَا وَعَدَ اللّٰهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ * خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَّرَوْنَهَا » الضمير للسموات . وهو استشهاد برؤيتهم لها غير معمودة على قوله (بِغَيْرِ عَمَدٍ) كما تقول لصاحبك : أنا بلا سيف ولا رمح ترانى . والجملة لاجل لها لأنها مستأنفة . أو فى محل الجر ، صفة للعمد . أو بغير عمد مرثية . يعنى أنه عمدها بعمد لا ترى

وهي إمساكها، بقدرته. كذا في (الكشاف) «وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسِي» أى جبالاً ثوابت «أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ» أى تميل بكم فتهلككم لما في جوفها من قوة الجيشان «وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ» أى من كل نوع من أنواعها «وَأَنْزَلْنَا» أى لحفظكم وحفظ دوابكم ، وللرفق بكم وبدوابكم «مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ» أى صنف من الأغذية والأدوية «كَرِيمٍ» أى كثير المنافع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ، بَلِ الظَّالِمُونَ

فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

[١٢] (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ ، وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا

يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)

« هَذَا » أى ما ذكر من السموات والأرض، وما تعلق بهما من الأمور المعدودة «خَلْقُ

اللَّهِ» أى مخلوقه «فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ» أى مما اتخذتموهم شركاء له سبحانه

في العبادة «بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» إضراب عن تبكيهم بما ذكر، إلى التسجيل عليهم

بالضلال البين المستدعى للإعراض عن مخاطبتهم بالمقدمات المعقولة الحققة، لاستحالة أن يفهموا

منها شيئاً، فيهدتوا به إلى العلم ببطلان ما هم عليه. أو يتأثروا من الإلزام والتبكي فيزجروا

عنه . ووضع الظاهر موضع ضميرهم ، للدلالة على أنهم بإشراكهم واضعون للشئ في غير

موضعه . ومتعدون عن الحدود. وظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد. أفاده أبو السعود

ثم أشار تعالى إلى أن بطلان الشرك مقول على لسان ذوى الحكمة . كيف لا؟ والتوحيد

أساس الحكمة، بقوله سبحانه «وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ» يعنى استكمال النفس بالعلوم

النظرية ، وملسكة الأفعال الفاضلة بقدر الطاقة البشرية ، آمين له على لسان نبي أو بطريق

الإلهام (على قول الجمهور أنه حكيم) أو الوحي (على قول عكرمة أنه نبي) « أَنْ أُشْكُرَ لِلَّهِ » أى على ما أعطاك من نعمه ، من أوتيتها فقد أوتى خيراً كثيراً . كذا قاله المهايى . والأظهر أن (أن) مفسرة . فإن إيتاء الحكمة فى معنى القول . والشكر كلمة تجمع ما تدور عليه سعادة الدنيا والآخرة . لأنه صرف العبد جميع ما أنعم الله عليه إلى ما خلق لأجله « وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ » لِعَوْدِ ثمرات شكره عليه « وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ » أى غنى عن كل شيء . فلا يحتاج إلى الشكر . وحقيق بالحمد . بل نطق بحمده كل موجود .

تنبيه :

قال ابن كثير : اختلف السلف فى لقمان . هل كان نبياً أو عبداً صالحاً من غير نبوة ، على قولين : الأكثر على الثانى . ويقال إنه كان قاضياً على بنى إسرائيل ، فى زمن داود عليه السلام . وما روى من كونه عبداً مسه الرق ، وينافى كونه نبياً . لأن الرسل كانت تبعث فى أحساب قومها . ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبياً ، وإنما يُنقل كونه نبياً عن عكرمة ، إن صح السند إليه . فإنه ^(١) رواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث وكيع عن إسرائيل عن جابر عن عكرمة . قال : كان لقمان نبياً . وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفى . وهو ضعيف . والله أعلم . انتهى .

وزعم بعضهم أن لقمان هو بلعام المذكور فى التوراة ، وكان حكيم شعب وثنى . وكان منبأ عن الله تعالى . وأغرب فى تقريبه ، بأن الفعل العربى وهو (لقم) معناه بالعبرى بلع . والله أعلم .

وقد نظم السيوطى من اختلف فى نبوته ، فقال :

واختلفت فى خضر أهل النقول قيل نبي أو ولي أو رسول
لقمان ، ذى القرنين ، حوا ، مريم والوقف فى الجميع رأى العظم

(١) انظر الصفحة رقم ٦٨ من الجزء الحادى والعشرين (طبعة الحلبي الثانية)

ثم قرن لقمان، بوصيته إياه بعبادة الله وحده، البرّ بالوالدين، كما قال تعالى ^(١) (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) وكثيرا ما يقرن تعالى بين ذلك في القرآن الكريم . وقال ههنا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَإِذْ قَالَ لَقْمَنُ لِبْنِهِ ۖ وَهُوَ يَعِظُهُ وَيَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

[١٤] (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ)

«وَإِذْ قَالَ لَقْمَنُ لِبْنِهِ ۖ وَهُوَ يَعِظُهُ وَيَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ * وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ۖ أَى بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا ، لاسيما الوالدة . لأنه « حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ » أى ضعفا فوق ضعف إلى الولادة . و(وهنا) حال من (أمه) أى ذات وهن . أو مصدر مؤكد لفعل هو الحال . أى : تهن وهنًا . وقوله (عَلَىٰ وَهْنٍ) صفة للمصدر . أى كائنا على وهن . أى تضعف ضعفا فوق ضعف . فإنها لاتزال يتزايد ضعفها . لأن الحمل كلما عظم ازدادت ثقلا وضعفا « وَفِصْلَهُ » أى فطامه « فِي عَامَيْنِ » ثم فسر الوصية بقوله سبحانه « أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ » أى بأن تعرف نعمة الإحسان وتقدره قدره . قال في (البصائر) : الشكر مبنى على خمس قواعد : خضوع الشاكر للمشكور . وجهه له . واعترافه ب نعمته . والثناء عليه بها . وأن لا يستعملها فيما يكره . هذه الخمسة هى أساس الشكر وبناءؤه عليها . فإن عدم منها واحدة ، اختلّت قاعدة من قواعد الشكر . وكل من تسكّم في الشكر ، فإن كلامه إليها يرجع وعليها يدور . انتهى .

وقوله تعالى «إِلَى الْمَصِيرِ» تعليل لوجوب الامتنال . أى إلى الرجوع ، لا إلى غيرى ، فأجازيك على ما صدر عنك من الشكر والكفر .

تنبيهات

الأول - قال الزمخشري: فإن قلت: قوله تعالى (حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصْلُهَا فِي عَامَيْنِ) كيف اعترض به بين المفسر والمفسر؟ قلت: لما وصى بالوالدين، ذكر ما تكابده الأم وتعانيه من المشاق والمتاعب في حملها وفساله هذه المدة المتطاولة، إيجاباً للتوصية بالوالدة خصوصاً، وتذكيراً بحقوقها العظيم مفرداً. ومن ثم قال رسول الله ﷺ (لَمَنْ قَالَ لَهُ مِنْ أَبْر؟) : أمك ثم أمك ثم أمك . ثم قال بعد ذلك : ثم أباك . وعن بعض العرب^(٢) أنه حمل أمه إلى الحج على ظهره وهو يقول في حدائنه بنفسه .

أَحْمِلْ أُمِّي وَهِيَ الْحَمْلُ * تَرْضِعُنِي الدَّرَّةَ وَالْمَلَّالَةَ * وَلَا يُجَازَى وَالِدٌ فَعَالَهُ

الثاني - قال الحفاظ ابن كثير: وقوله تعالى (وَفِصْلُهَا فِي عَامَيْنِ) كقوله^(٣) (وَأَلْوَدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَمَا مِلَيْنَ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ) ومن هنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة، أن أقل مدة الحمل ستة أشهر. لأنه قال في الآية الأخرى^(٤) (وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) وإنما يذكر تعالى تربية الوالدة وتعبها ومشقتها في سهرها ليلاً ونهاراً، ليذكر الولد بإحسانها المتقدم إليه . كما قال تعالى^(٥) (وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) .

(١) أخرجه البخاري في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ٢ - باب من أحق الناس بحسن الصحبة ، حديث رقم ٢٣٠٩ ، عن أبي هريرة .

(٢) انظر السكامل للمبرد ، الصفحة ٢٩٢ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٣٣] . (٤) [٤٦ / الأحقاف / ١٥] . (٥) [١٧ / الإسراء / ٢٤] .

الثالث - قال الزمخشري : فإن قلت : ما معنى توقيت الفصال بالعامين ؟ قلت : المعنى في توقيته بهذه المدة ، أنها الغاية التي لا تتجاوز . والأمر فيما دون العامين موكول إلى اجتهد الأم ، إن علمت أنه يقوى على الفطام ، فلها أن تقطمه . ويدل عليه قوله تعالى (١) «وَأُولَٰئِكَ يُرْضَعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ» .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

«وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا» أى في إشراك ما لا تعلمه مستحقاً للعبادة ، تقليداً لها .

وقال الزمخشري : أراد بنفي العلم به نفيه ، أى لا تشرك بى ما ليس بشيء ، يريد الأصنام . كقوله (٢) «مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ» .

قال في (الكشف) : ليس هذا من قبيل نفي العلم لنفي وجوده . كما مر في القصص . وإلا لقال ما ليس بموجود . بل أراد أنه بولغ في نفيه حتى جعل كلا شيء . ثم بولغ في سلك المجهول المطلق .

قال الشهاب : وهذا تقرير حسن ، فيه مبالغة عظيمة « وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا » أى صحاباً معروفين برتضييه الشرع ويقتضيه الكرم .

قال السيوطي في (الإكمال) : في الآية أن الوالد لا يطاع في الكفر . ومع ذلك يصحب معروفًا « وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ » أى بالتوحيد والإخلاص في الطاعات ، وعمل

(١) [٢ / البقرة / ٢٣٣] . (٢) [٢٩ / العنكبوت / ٤٢] .

الصالحات « ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَنبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » كناية عن الجزاء ، كما تقدم نظائره .

قال القاضي : والآيتان ، يعني (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ إِلَىٰ قَوْلِهِ - تَعْمَلُونَ) معترضان في تضاعيف وصية لقمان ، تأكيذا لما فيها من النهي عن الشرك . كأنه قال : وقد وصينا بمثل ما وصى به ، وذكر الوالدين للمبالغة في ذلك . فإنهما ، مع أنهما تلو البارئ تعالى في استحقاق التعظيم والطاعة ، لا يجوز أن يطاعا في الإشرak . فما ظنك بغيرها ؟ انتهى .
ثم بين تعالى بقية وصايا لقمان ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (يَبْنِيْٓ إِنَّهَاۥ إِن تَكُ مُثْقَلًاۢ حَبَّةً مِّنْ خَرْدَلٍۭ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي

السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

[١٧] (يَبْنِيْٓ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَامْرُءٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ

مَا أَصَابَكَ ، إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)

« يَبْنِيْٓ إِنَّهَاۥ إِن تَكُ مُثْقَلًاۢ حَبَّةً مِّنْ خَرْدَلٍ » أى إن الحصلة من الإساءة أو الإحسان ،

إن تك مثلاً في الصغر كحبة الخردل « فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ »

أى فتكن مع كونها في أقصى غايات الصغر ، في أخفى مكان وأحرزه ، كجوف الصخرة .

أو حيث كانت في العالم العلوى أو السفلى « يَأْتِ بِهَا اللَّهُ » أى يحضرها ويحاسب عليها « إِنَّ

اللَّهُ لَطِيفٌ » أى ينفذ علمه وقدرته في كل شيء « خَبِيرٌ » أى يعلم كنه الأشياء ، فلا يعسر

عليه . والآية هذه كقوله تعالى ^(١) (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ

(١) [٢١ / الأنبياء / ٤٧] .

شَيْئًا) (الآية ، وقوله^(١) (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) .

لطيفة :

قوله تعالى (فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ) الآية ، من البديع الذى يسمى التتميم . فإنه تم خفاءها فى نفسها بخفاء مكانها من الصخرة . وهو من وادى قولها^(٢) (كأنه علم فى رأسه نار) . « يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ » أى بحدودها وفروضها وأوقاتها ، لتكميل نفسك بعبادة ربك « وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ » لتكميل غيرك « وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ » أى من المحن والبلايا . أو فيما أمرت به من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لأن الداعى إلى الحق معرض لإيصال الأذى إليه . وهو أظهر . ويطابقه آية^(٣) (وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) « إِنَّ ذَلِكَ » إشارة إلى الصبر . أو إلى كل ما أمر به « مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » أى مما عزمه الله من الأمور . أى قطعه قطع إيجاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَلَا تَصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْسِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

(١) [٩٩ / الزلزلة / ٧ و ٨] .

(٢) قائلته الخنساء ، ترى أخاها صخرًا . ومطلع القصيدة :

ما هاج حزنك أم بالعين عوارُ أم ذرفت ، أم خلت من أهلها الدارُ

وصدر البيت :

* أغرَّ أبلجُ تأنم الهداة به *

(٣) [١٠٣ / العصر / ٣] .

[١٩] (وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ، إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ)

«وَلَا تَصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ» أى لا تعرض بوجهك عنهم ، إذا كلمتهم أو كلموك ، احتقارا منك لهم ، واستكبارا عليهم . ولكن ألن جانبك ، وابسط وجهك إليهم . كما جاء في الحديث^(١) (ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسطة) «وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا» أى خيلاء متكبرا «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ» أى معجب فى نفسه «فَخُورٍ» أى على غيره «وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ» أى توسط بين الديب والإسراع «وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ» أى انقص من رفعه ، وأقصر ، فإنه يقبح بالرفع حتى ينكره الناس ، إنكارهم على صوت الحمير . كما قال «إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ» معللا للأمر على أبلغ وجه وآكده و(أنكر) بمعنى أوحش . من قولك (شئ نكر) إذا أنكرته النفوس واستوحشت منه ونفرت . كما يقال فى العرف للقبيح (وحش) وأصله ضد الأنس والألفة . فهو إما مجاز أو كناية .

قال الزخشرى : الحمار مثل فى الذم البليغ والشتيمة وكذلك نهاقه . ومن استفحاشهم لذكركه مجردا ، وتقادهم من اسمه ، أنهم يكون عنه ويرغبون عن التصريح به . فيقولون (الطويل الأذنين) كما يكنى عن الأشياء المستعذرة . وقد عُدَّ فى مساوى الآداب ، أن يجرى ذكر الحمار فى مجلس قوم من أولى المروءة . ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافا ، وإن بلغت منه الرحلة . فتشبيهه الرافعين أصواتهم بالحمير ، وتمثيل أصواتهم بالهياك ، ثم إخلاء الكلام من لفظ التشبيه ، وإخراجه مخرج الاستعارة ، وأن جعلوا حميرا ، وصوتهم نهاقا - مبالغة

(١) أخرجه الترمذى فى : ٢٥ - كتاب البر والصلة ، ٤٥ - باب ما جاء فى طلاقة الوجه وحسن البشر ، ونصه : كل معروف صدقة . وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق ، وأن تفرغ من دلوك فى إناء أخيك ، عن جابر بن عبد الله .

شديدة في الذم والتهجين . وإفراط في التثبيط عن رفع الصوت والترغيب عنه . وتنبيهه على أنه من كراهة الله بمكان . انتهى .

تنبيه :

جاء ذكر لقمان في أحاديث مرفوعة . منها ما رواه الإمام أحمد^(١) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : إن لقمان الحكيم كان يقول : إن الله إذا استودع شيئاً حفظه . وروى ابن أبي حاتم عن القاسم بن خيمرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : قال لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه : يا بني إياك والتقنع ، فإنه مخوفة بالليل ، مذمة بالنهار .

ومن الآثار فيه ما رواه ابن أبي حاتم عن السري بن يحيى قال : قال لقمان لابنه : يا بني إن الحكمة أجلس المساكين مجالس الملوك .

وعن عون بن عبد الله قال : قال لقمان لابنه : يا بني ! إذا أتيت نادى قوم فارمهم بسهم الإسلام (يعنى السلام) ثم اجلس في ناحيتهم ، فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا . فإن أفاضوا في ذكر الله فأجل سهمك معهم . وإن أفاضوا في غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم . نقله ابن كثير رحمه الله .

ثم نبه تعالى خلقه على نعمه الوافرة المستتبعة انفراده بالالوهية ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ، وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ)

(١) أخرجه بالصفحة رقم ٨٧ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي)

[٢١] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ

ءَابَاءَنَا، أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ)

« أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » أى من النجوم

والشمس والقمر ، التى ينتفعون من ضيائها وما تؤثره فى الحيوان والنبات والجماد بقدرته تعالى .

وكذا من الأمطار والسحب والكوائن العلوية التى خلقها تعالى لنفع من سخرت له .

وكذا ما وجد فى الأرض من قرار وأشجار وأنهار وزروع وثمار ، ليستعملها من سخرت له

فما فيه حياته وراحته وسعادته « وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ وَظَهَرَ وَبَاطِنَهُ » أى محسوسة

ومعقولة . كإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وإزاحة الشبه والعلل « وَمِنَ النَّاسِ » يعنى

الجاحدين نعمته تعالى « مَنْ يُجَادِلْ فِي اللَّهِ » أى فى توحيدِهِ وإرساله الرسل « بِغَيْرِ عِلْمٍ »

أى برهان قاطع مستفاد من عقل « وَلَا هُدًى » أى دليل مأثور عن نبيّ « وَلَا كِتَابٍ

مُنِيرٍ » أى منزل من لدنه تعالى ، بل لمجرد التقليد . و (المنير) بمعنى المنقذ من ظلمة الجهل

والضلال « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ » أى لمن يجادل . والجمع باعتبار المعنى « اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ

قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ »

أى يدعو آباءهم إلى اعتقادات وأعمال ، هى أسباب العذاب . كأنه يدعوهم إلى عين العذاب .

فهم متوجهون إليه حسب دعوته . ومن كان كذلك فأنتى يتبع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ

وَإِلَى اللَّهِ عِقْبَةُ الْأُمُورِ)

[٢٣] (وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ، إَلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَتُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ،

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

[٢٤] (نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ)

[٢٥] (وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[٢٦] (لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

[٢٧] (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

[٢٨] (مَا خَلَقْنَاكُمْ وَلَا نَبْعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

[٢٩] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ

السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ كُلُّ يَوْمٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

«وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ» أى فى أعماله «فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ

الْوُثْقَى» أى تعلق بأوثق ما يتعلق به من الأسباب . وهو تمثيل لحال المؤمن المخلص المحسن ،

بحال من أراد رقى شاق ، فتمسك بأوثق عرى الجبل المتدلى منه « وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ

الْأُمُورِ * وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ وَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا » أى

من الأعمال للظاهرة والباطنة «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ

إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ

لِلَّهِ » أى على أن جعل دلائل التوحيد بحيث لا يكاد ينكرها المكابرون أيضا « بَلْ أَكْثَرُهُمْ

لَا يَعْلَمُونَ » أى شيئا ما . فلذلك لا يعملون بمقتضى اعترافهم « لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ » أى فلا يستحق العبادة فيهما غيره « إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ » أى عن العالمين ،

وهم فقراء إليه جميعا « الْحَمِيدُ » أى المحمود فيما خلق وشرع ، بلسان الحال والمقال « وَلَوْ أَنَّمَا

فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمَ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ « أَى مِنْ بَعْدِ نَقَادِهِ » سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ « أَى الَّتِى أَوْجَدَ بِهَا الْكَائِنَاتِ ، وَسَيُوجِدُ بِهَا مَا لَا غَايَةَ لِحَصْرِهِ وَمَنْتَاهَا . وَالسَّبْعَةُ ، إِنَّمَا ذَكَرْتُ ، عَلَى سَبِيلِ الْمُبَالَغَةِ لِالْحَصْرِ . « إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ « أَى إِلَّا كَخَلْقِهِمَا وَبَعْثِهِمَا فِي سَهُولَتِهِ « إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى « أَى أَمَدٍ قَدَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِحَرْبِهِمَا ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ « وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ « أَى لِأَنِّ مِنْ شَاهِدٍ مِثْلَ ذَلِكَ الصَّنْعِ الرَّائِقِ ، وَالتَّدْبِيرِ الْفَائِقِ ، لَا يَكَادُ يَغْفُلُ عَنْ كَوْنِ صَانِعِهِ عَزَّ وَجَلَّ حَاطًا بِمَا يَأْتِي وَيَذَرُ .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[۳۰] (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)

[۳۱] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

[۳۲] (وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ)

« ذَلِكَ » إشارة إلى ما ذكر من سعة العلم وشمول القدرة ومعجائب الصنع واختصاص الباري بها « بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ » أى بسبب أنه الحق ، وجوده وإلهيته « وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ » أى بإحسانه فى تهيئة أسبابه « لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ » إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ

صَبَّارٍ « أى عظيم الصبر على البأساء والضراء » شَكُورٍ « أى كثير الشكر للنعم ، بالقيام بحقها » وَإِذَا غَشِيَهُمْ « أى علاهم وأحاط بهم » مَوْجٌ كَأَنَّ لَظْلَالَ « أى كالسحب والحجب » دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ « أى التجئوا إليه تعالى وحده ، لزوال ما ينازع الفطرة من الهوى والتقليد ، بما دهاهم من الضر » فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ « قال ابن كثير : قال مجاهد : أى كافر . كأنه فسر (المقتصد) ههنا بالجاحد كما قال تعالى ^(١) (فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) وقال ابن زيد : هو المتوسط فى العمل . وهذا الذى قاله ابن زيد هو المراد فى قوله ^(٢) تعالى (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ) الآية ، فالملتصّد ههنا هو المتوسط فى العمل . ويحتمل ، أن يكون مراداً هنا أيضاً ، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأحوال والأمور العظام ، والآيات الباهرات فى البحر . ثم من بعد ما أنعم الله عليه بالخلاص ، كان ينبغى أن يقابل ذلك بالعمل التام ، والدؤوب فى العبادة ، والمبادرة إلى الخيرات . فمن اقتصد بعد ذلك ، كان مقصراً والحالة هذه . والله أعلم . انتهى « وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كَلٌّ خِتَارٌ » أى غدار ، ناقض للمهد الفطرى ولعقد العزيمة وقت الهول البحرى « كَفُورٌ » أى مبالغ فى كفران نعمه تعالى . لا يقضى حقوقها ، ولا يستعملها فى محابّه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ)

« يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا » أى ليس بمن أحدهما عن الآخر شيئاً ، لا نقطاع الوصل فى

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٦٥] . (٢) [٣٥ / فاطر / ٣٢] .

ذلك اليوم الرهيب . قال أبو السعود : وتغيير النظم - في الثانية - للدلالة على أن المولود أولى بأن لا يجزى . وقطع طمع من توقع من المؤمنين أن ينفع أباه الكافر في الآخرة « إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ » أى بالثواب والعقاب . لا يمكن إخلافه « فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ » أى الشيطان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

« إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ » أى علم وقت قيامها « وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ » أى فى وقته الذى قدره ، وإلى محله الذى عينه فى علمه « وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ » أى من ذكر أو أنثى ، سعيد أو شقى « وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا » أى من خير أو شر « وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ » أى فى بلدها أو غيره . لاستئثار الله تعالى بعلم ذلك . وقد جاء فى الخبر تسمية هذه الخمس ، مفاتيح الغيب « إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » أى بما كان ويكون ، وبظواهر الأشياء وبواطنها ، لا إله إلا هو .